ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 14/ العدد 1 (جوان 2019): ص.ص: 700- 712

تداخل الأنساق المعرفية لمقام السامعين البلاغة العربية والتداولية

لخذاري سعد*

LAKHDARI Saad*

كلية الآداب و اللغات، جامعة البويرة، الجزائر

lakhdari.saad@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2017/11/18- تاريخ القبول: 2019/06/12

الملخص:

لقد كان للعلماء البلاغيين العرب مجهوداتهم القيمة في التنظير لما يحقق الفهم والإفهام بكل الوسائل والطرق والأساليب، وقد احتل السامع دورا مركزيا في البلاغة العربية، لأنه هدف كل تواصل وخطاب، وقد كانت التداولية الحديثة أقرب العلوم للبلاغة القديمة من حيث الأنساق المعرفية، حيث لوحظ تداخل واشتغال كبير بين البلاغة والتداولية، خاصة مقام السامع، فكانت هناك تداخلات بارزة بين الأنساق المعرفية تدعو للدراسة والتمحيص وتأسيس ما يسمى البلاغة العربية الجديدة؛ تتأسس بناء على معطيات البلاغة القديمة ومناهج تحليل الخطاب الحديثة وعلى رأسها التداولية.

الكلمات المفتاحية: التداخل-الأنساق المعرفية-مقام السامع-البلاغة العربية -التداولية

Abstract:

The Arab linguists had their valuable efforts in theorizing for understanding by all means, methods and methods. The hearer occupied a central role in Arab rhetoric, because it is the goal of every

---

* المؤلف المرسل: لخذاري سعد، البريد الالكتروني: lakhdari.saad@yahoo.com

*Corresponding author: LAKHDARI Saad, e-mail:lakhdari.saad@yahoo.com

communication and speech. Modern deliberation was the closest science to the ancient eloquence in terms of cognitive patterns. There is a significant overlap between the patterns of knowledge calling for study and scrutiny and the establishment of the so-called new Arabic rhetoric; based on the data of old rhetoric and methods of analysis of modern discourse, especially deliberative.

المقدمة:

لطالما شغلت قضية البلاغة القديمة (اليونانية والعربية) أذهان الدارسين المحدثين، بما تحمله من قيم علمية وإفادة كبيرة على صعيد تحليل الخطاب بمقارباته المتعددة التداولية والأسلوبية والحجاجية. وبما أن المجال كان من اختصاصنا، ارتأينا أن ندرس الأنساق المعرفية المتعلقة بالسامع في البلاغة العربية وكيف يمكن لهذه الأنساق أن تتداخل وتتشابك وتشتغل مع الأنساق المعرفية للتداولية، لاسيما أن البلاغة القديمة والتداولية تتشاركان الكثير من المواقف والآراء.

أولا) تحديد المفاهيم

أ) تداخل: ورد لدى "ابن منظور" (ت711هـ) حول مادة (د، خ، ل) ما يلي:" دخل: الدّخول نقيض الخروج، دخل يدخل دخولا وتدخّل ودخل به...وتداخل الأمور: تشابهها والتباسها ودخول بعضها في بعض. والدّخلة في اللون: تخليط ألوان في لون..."(1)؛ فحسب ابن منظور فإن دخل التي هي أصل تداخل تعني التشابه والالتباس، وتجاور لشيئين أن يتشاركا المساحات ويختلطا إلى درجة أنه لا يمكن تمييز وجود عنصرين مختلفين.

أما المفهوم الاصطلاحي لـ "التداخل"، فيمكن اعتبار " التداخل النصي خصيصة بنائية للنص ودلالته، بما يتيحه من تعالق وانفتاح على نصوص قديمة أو معاصرة تسهم في بناء الموضوع من خلال تفاعلها مع عناصر أخرى داخل النسيج النصي...وتداخل باعتباره خاصية قرائية، يعمد فيها القارئ إلى تخريج علاقات قد لا تخطر على بال المؤلف ذاته، مع ربط هذا المفهوم بحقول معرفية متعددة، وإدراك

(1)- ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، ص: 239، 243.

الاختلافات الحاصلة جراء تفعيل المفهوم من حقل لآخر"[1]؛ فالتداخل يحصل للنصوص والمعارف بحيث تتعالق وتنفتح على بعضها، بين القديم والجديد، فالعلاقات بين التراث والحداثة موجودة على صعيد العلوم والمعارف تحتاج فقط باحثين جادين للكشف عنها بغرض الإخصاب والإثراء والإحياء، ولكن ينبغي الحذر من الإسقاط التعسفي للمعارف لأن لكل ثقافة وتاريخ ومجال خصوصيات ومبادئ ينبغي أخذها في الاعتبار.

ب) النسق المعرفي: ورد عند ابن منظور (نسق):" النّسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عامٌّ في الأشياء، وقد نسّقته تنسيقا، ويخفف. ابن سيدة: نسق الشّيء ينسقه نسقا، ونسّقه نظّمه على السواء...والتنسيق: التنظيم. والنسقُ: ما جاء من الكلام على نظام واحد...والنّسق بالتسكين: مصدر نسّقت الكلام إذا عطفت بعضه على بعض، ويقال: نسّقت بين الشيئين وناسقت"[2].

أما مادة (عرف) عند ابن منظور فقد جاءت:" العرفان العلم، قال ابن سيدة: وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان، عرفه يعرفه عِرفةً، وعرفانًا ومعرفةً واعترفه...ورجل عروفٌ وعروفةٌ: عارف يعرف الأمور ولا ينكر أحدا رآه مرة، والهاء في عروفة للمبالغة. والعريف والعارف بمعنى مثل عليم وعالم"[3].

من هذه الاقتباسات من لسان العرب يتضح معنى ومفهوم النسق المعرفي أو الأنساق المعرفية، فهي تنظيمات معرفية تكتنف أي مجال أو جانب من اللغة تحاول هذه الأنساق تنظيم المعارف والقيام بتجريدات وتعميمات لغرض الفهم والحصر والتقنين، وما يهمنا في بحثنا هو السامع كعنصر مشترك بين البلاغة والتداولية، فللسامع قديما أو حديثا معارف وحدود تؤطّره ندعوها الأنساق المعرفية أو الأنظمة التي تحكمه والقواعد التي تضبطه في التواصل الناجع والبلاغة الكاملة، فاللغة العربية بما

(1)- المصطفى مويقن، "من التداخل النصي إلى الممارسة النصية، قراءة في كتاب: أدونيس والخطاب الصوفي لخالد بلقاسم"، مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية، رئيس التحرير: محمد عابد الجابري، الموقع الالكتروني: www.aljabriabed.net

(2)- ابن منظور، لسان العرب، ج10، دار صادر، بيروت، ص: 352، 353.

(3)- المصدر نفسه، ج 09، ص 236.

فيها السامع تحكمها تنظيمات وأنساق مفهومية معقدة ومتشابكة تتطلب استقراء واطلاعا واسعا وجهدا معتبرا لغرض توصيفها والإفادة من هذا النشاط العلمي المعرفي.

ج) مقام السامع: جاء في "معجم تحليل الخطاب" أن السامع أو المرسل إليه " يمثل...في أغلب الأحيان المتقبّل الموجود في مقام تواصل شفوي، وهو مقام لا يمكن له فيه مبدئيا إلاّ أن يكتفي بالاستماع إلى ما يقوله المتكلم بدون أن يستطيع تناول الكلمة، هذا هو شأن الوسائط الإذاعية (السلام عليكم، مستمعي الأعزاء)، أو الدرس أو المحاضرة (مستمع حر)، وبصفة عامة كل وضعية تنشر فيها رسالة عامة. قد يستعمل مصطلح Auditoire منافسا (Auditeur) لكن لتعيين متقبّل تواصل شفوي لابدّ أن يكون جمعا، أي مجموع المشاركين في مقام حيث يتجه خطيب إلى جمهور...الخطيب وجمهور المستمعين مفهومان مترابطان يستعملان لتعيين قطبي الإنتاج والتقبل في الإطار التشاركي...فجمهور المستمعين يتكون من مجموع المستمعين وهم أشخاص حاضرون بأجسامهم يمثلون الهدف المقصود إقناعه..."[(1)]؛ فالسامع له مقام يتم فيه التخاطب، وينبغي لهذا السامع أن يكون حاضرا وواعيا يشجع على التفاعل والمشاركة، وهو الهدف من كل تواصل بغرض إقناعه وتمرير أفكار وأحداث ومواقف إليه، ولديه مقام ينبغي أن يشخصه المتكلم لكي ينجح وينفذ إلى كيانه، كذلك يجب أن تكون هناك عناصر يشترك فيها قطبا التواصل (المتكلم والسامع) حتى يتم التواصل الناجع وإنجاح هدف الإبلاغ والتفاهم.

د) البلاغة العربية: جاء عن الجاحظ (ت255هـ) مفهومٌ للبلاغة يقول فيه:" جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني وغمُضَ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذّر"[(2)]. كما أنّ:" البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغةً، لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[(3)]؛

(1)- باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص: 167، 168 .

(2)- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998، ص88.

(3)- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، طبع : أحمد ناجي الجمالي، محمد أمين خانجي الكتبي، ط1، الأستانة العلية، 1319هـ، ص 06 .

فالبلاغة جاءت كعلم يوضح ويشرح كيفية إفهام السامع من غير لبس أو غموض بمعرفة ظروف المقام والسياق الذي يرد فيه الكلام، وأعطت أهمية للسامع لأنه يمثل الهدف الأسمى للبلاغة، لما يحصل تفاهم وإبلاغ للمرسل إليه فثمة بلاغة وإفصاح وتواصل، فأخذت تبحث وتنظر للعناصر التي تساهم في نجاعة الخطاب وإيصاله بأيسر وأوضح السبل.

ه) التداولية: ورد لدى معجم ابن منظور أن "دول":" تداولنا الأمر: أخذناه بالدول، وقالوا: دواليك، أي مداولة على الأمر. قال سيبويه: وإن شئت حملته على أنه وقع في هذه الحال. ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرّة وهذه مرّة"[1]؛ فالمفهوم اللغوي للتداول أو دول هو الأخذ والمشاركة والتعاقب بين الأيدي، أي الاستعمال.

أما المفهوم الاصطلاحي للتداولية، فهي العلم الذي يهتم:"...بعلاقات العلامات بمستعمليها واستعمالها وآثارها. وبصفة أعم فنحن عندما نتحدث اليوم عن مكون تداولي، أو عندما نقول: إن ظاهرة ما خاضعة لعوامل تداولية، فإننا نشير بذلك إلى المكون الذي يدرس مسارات تأويل الملفوظات في مقام"[2]؛ فالتداولية تدرس حياة العلامات في الاستعمال، وكيفية أداء اللغة دورا فعالا على السامع، وما هي العناصر التي تجذر الخطاب وتدعم استهلاكه، فبذلك يمكن أن نتقرب من أي خطاب ونعرف العناصر والوسائل التي يكتنزها والتي تساهم في التواصل الأمثل، ولما نتحدث عن مقام تواصلي فإننا لا يمكن أن نكتفي بالعناصر اللغوية، بل توجد عناصر غير لغوية حاسمة في عملية التداول، كملامح الوجه، والألوان، ومقام وظروف التخاطب.

ثانيا) التداخل النسقي (السامع، البلاغة/التداولية)

لقد مُنح السامع أهمية بالغة في كل من البلاغة العربية قديما، والتداولية في العصر الحديث، وبسبب التفصيل في مقام السامع وما يختص به، تولدت أنساق معرفية تحيط به في كل من البلاغة والتداولية، ولوحظ مع هذا التفصيل وجود

(1)- ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، ص 252 .

(2)- باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 442 .

تداخل لهذه الأنساق بين القديم والحديث، أي البلاغة والتداولية، وهو نشاط واشتغال يدعو إلى الدراسة والنظر، لأنه يصب في البلاغة الجديدة، أي القيم العلمية التي تحملها البلاغة القديمة على صعيد التداولية، لأن البحث في الأنساق العلمية في البلاغة القديمة تعتبر بمثابة تحديث وبعث للجوانب العلمية فيها، حتى تنظم وترتب وتبعث كحقل تخصصي، فالدارس لا يمكن أن يرفض تلك التقاطعات والتفاعلات بين القديم والحديث، بين البلاغة القديمة والمناهج الخطابية الحديثة التي يمكن أن تكون بلاغة عربية جديدة، وسنحاول أن نلمس هذه التداخلات لمقام السامع بين البلاغة القديمة والتداولية الحديثة.

يرى "عبد الهادي بن ظافر الشهري" أن:"...دور المرسل إليه، يتجاوز ذلك، فبناء الخطاب وتداوله مرهون، إلى حد كبير، بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال. والافتراض المسبق ركن ركين في النظام البلاغي العربي، إذ العناية في المقام الأول موجهة إلى المرسل إليه، حتى فيما يعرف بالمحسنات البديعية بوصفها تحقق هدف المرسل من الخطاب، وذلك، بالتأثير فيه، فالعناية بالمحسنات، ليست من قبيل الزخرفة اللفظية، أو إبراز قدرات المرسل اللغوية، كما يشاع عن ذلك. ويدل ذلك، على أن المرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب، سواءً أكان حضورا عينيا، أم استحضارا ذهنيا، وهذا الشخوص أو الاستحضار للمرسل إليه، هو ما يسهم في حركية الخطاب، بل يسهم في قدرة المرسل التنويعية ويمنحه أفقا لممارسة اختيار استراتيجية خطابه"[1]؛ فالمرسل إليه سواءً في البلاغة العربية أو التداولية له من الأهمية في تداول الخطاب، فالبلاغة تستخدم المحسنات البديعية بقدرتها التأثيرية وإعمال الأثر المناسب، كما أن المتكلم يضع في حسبانه مواصفات السامع وخصائصه فيكيف خطابه حسب وضعيته حتى يظفر بدور الإقناع وتحقيق بغية التواصل. فالمخاطِب لديه استراتيجيات تمنحها اللغة حتى يتم التواصل بشكل ناجع، نلاحظ من هذا الطرح أن البلاغة والتداولية تستخدمان الطاقة اللغوية وتشكيلاتها المتنوعة لتجذير الخطاب ونجاعته والوصول والانتهاء للسامع.

(1)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، ط1، لبنان، 2004، ص: 47، 48 .

يعتبر "الجاحظ" (ت255هـ) مؤسسا للبلاغة العربية التي فصّل كثيرا في مباحثها، وله آراء معرفية تتعلق بالسامع ودوره البلاغي، تتداخل هذه الآراء مع طروحات التداولية، ورد في كتاب "البيان والتبيين":" قال: وحدّثني مهدي بن ميمون، قال: حدّثنا غيلان بن جرير، قال: كان مطرِّف بن عبد الله يقول: لا تطعم طعامك من لا يشتهيه، يقول: لا تقبل بحديثك على من لا يقبلُ عليه بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود: حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك"(1)؛ فهي أنساق معرفية بلاغية قديمة تتعلق بالسامع والمواصفات التي ينبغي أن يتحلى بها حتى يكون الكلام بليغا ومُعملاً للتواصل المناسب، فالسامع ينبغي أن يكون مستعذبا للكلام، كما يكون مقبلا بوجهه ونظره، ومعطيا لسمعه، ولما تتراخى هذه العناصر تنتهي البلاغة، وهذه الطروحات، هي طروحات بلاغية وتداولية في الوقت نفسه، لأن التداولية الحديثة مثلها مثل البلاغة تشترط سامعا نشطا واعيا وحاضرا أثناء عملية المخاطبة، وأي تراخي من جانب السامع يعني انتهاء دورة التواصل والنجاعة الخطابية، وهذا تقاطع وتداخل هام على صعيد البلاغة والتداولية.

من أهم العناصر التي تطبع التداولية **السياق** بكل مكوناته، وقد كانت البلاغة تتحدث عن مقوماته وأحواله، جاء في كتاب "عيار الشعر" لـ "ابن طباطبا" (ت332هـ) ما مؤدّاه:"...ويحضر لبّه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطّها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجة الملوك. ويعدّ لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه"(2)؛ فالبليغ يراعي الحالة الاجتماعية للسامع إن كان رئيسا أو مرؤوسا، بسيطا كان أم عالما، فنجاح البلاغة يكمن في السامع وأحواله، حيث أن النظم اللغوي لا يكفي ما لم يراعى حال السامع، وهذا طرح تداولي كذلك؛أي مراعاة سياق التخاطب، فمن متطلبات السياق الحالة الاجتماعية والنفسية للمخاطَب، بحيث أن

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح وشر: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998، ص: 103، 104 .

(2) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شر وتح: عباس عبد الساتر، مرا: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، لبنان، 2005، ص 12 .

الكلام ينبغي أن يكون مقبولا ومفهوما عنده، يستسيغه ويقبله، ولا يمجه أو يستغربه، فالتداولية في هذا الأمر مثل البلاغة أن تضع السامع في الحسبان ووضعيته وشخصيته وقابليته لمناسبة الكلام.

ومن ضمن الأنساق المعرفية المتداخلة بين البلاغة والتداولية "القصد"، حيث نجد "أبا يعقوب السكاكي" (ت626ه) الذي يطلق عليه مقتضى الحال، أي تكييف البنى اللغوية بناءً على الغرض المراد من السامع والمعنى المراد إيصاله، يقول السكاكي:" ثم إذا شرعت في الكلام، فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه، فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة، فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن المقتضى ترك المسند، فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره..."[(1)]؛ فمن البلاغة مراعاة القصد المنوط بالمعنى المراد إيصاله للسامع، بالتحكم في الكلام وأبنيته اللغوية، من حيث التحكم في التراكيب وما تنطوي عليه من عناصر مؤثرة في التداول، أي التعالق بين المبنى والمعنى في التداولية، فمقتضى الحال يفرض على المتكلم توليد كلامه بكيفيات معينة، ليكون الخطاب ناجعا ومعملا للغرض المناسب، وهذا تقاطع وتداخل هام على صعيد البلاغة والتداولية.

لقد احتوت البلاغة العربية القديمة على ما يسمى الأسلوبين الخبري والإنشائي، وأسلوب الإنشاء (الاستفهام، التعجب، التمني، التعجب، والأمر) أنساق معرفية بلاغية تتعلق بالتأثير على السامع وتحريكه، ما يتقابل مع نظرية الأفعال الكلامية في الدرس التداولي الحديث، ما يؤدي إلى وجود تداخل نسقي بين العلمين.

يقول السكاكي في "التمني":" أما النوع الأول من الطلب: التمني. أوَ ما ترى كيف تقول: ليت زيدا جاءني، فتطلب كون غير الواقع فيما مضى واقعا فيه مع حكم العقل

(1)- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتع: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987، ص: 168، 169 .

بامتناعه، أو كيف تقول: ليت الشباب يعود يوما، فتطلب عود الشباب مع جزمك بأنه لا يعود، أو كيف تقول: ليت زيدا يأتيني، أوليتك تحدثني فتطلب إتيان زيدا وحديث صاحبك في حال لا تتوقعها ولا لك طماعية في وقوعهما، إذ لو توقعت أو طمعت لاستعملت: لعل أو عسى"[1]؛ فالتمني هو طلب وقوع شيء والقيام بفعل على السامع وتحريكه، وهو صيغة بلاغية ذات صبغة تداولية، فالأنساق التي تصبغ التمني في البلاغة العربية تتشابه وتتفاعل مع الأنساق التي تطبع نظرية أفعال الكلام التداولية، فاللغة تحوي طاقات تعبيرية تحرك السامع وتوجهه وتحمله على التجاوب بفعالية مع المتكلم.

ثم يتناول السكاكي الأساليب الإنشائية الأخرى بمزيد من التفصيل، فيقول:" وأما الأمر، لا النهي والنداء فلطلب الحصول في الخارج، أما حصول انتفاء متصور كقولك في النهي للمتحرك: لا تتحرك، فإنك تطلب بهذا الكلام انتفاء الحركة في الخارج، وأما حصول ثبوته، كقولك في الأمر:قم، وفي النداء: يا زيد؛ فإنك تطلب بهذين الكلامين حصول قيام صاحبك وإقباله عليك في الخارج، والفرق بين الطلب في الاستفهام، وبين الطلب في الأمر والنهي والنداء واضح، فإنك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق، فنقش الذهن في الأول تابع وفي الثاني متبوع"[2]؛ فالأساليب الإنشائية في البلاغة العربية كلها أنساق معرفية تتعلق بتحريك السامع، ودفعه للقيام بفعل وحركة ونشاط، هذه الأنساق المعرفية تتداخل وتتشارك مع الأنساق التي تؤطّر لنظرية الأفعال الكلامية التداولية، هذا اللقاء والتداخل ينم عن تفكير علمي في البلاغة العربية ويؤسس لبلاغة عربية جديدة تعبر فيه البلاغة القديمة عن أنساقها، ولهذا رصدت الكثير من الآراء العلمية في بلاغتنا العربية على صعيد التداولية المعاصرة.

لقد كان الجاحظ يولي أهمية بالغة لكل من المتكلم والسامع، ويصف كل العناصر التي تساهم في البلاغة والنجاعة الخطابية، يقول:"...المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلّجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم...لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه

(1)- المصدر نفسه، ص 303 .

(2)- المصدر نفسه، ص 304 .

والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها، وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا...وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان..."[1]؛ نلاحظ من خلال هذا الشرح الوافي للجاحظ بأنه يعرف أسرار البلاغة، ويحث على العناصر التي تؤثر في السامع حتى تستطيع التواصل معه بنجاعة وكفاءة خطابية. فالجاحظ يؤطّر ويقدم أنساق معرفية خاصة بالتواصل الوافي الذي يضم طرفين متكلم وسامع، ويلخص كل عناصر التواصل بمصطلح البيان وهذا الشرح الذي قدمه يتوافق مع الأنساق التداولية، بل ويدخل في صلبها، لأنها تهتم بعلاقة العلامات بمستعمليها، أي ما الذي يجعل العلامات تتلقى بشكل جيد ووافٍ، فالجاحظ بهذا يؤسس لقوانين التداول ويعرّف بمكانة كل من المتكلم ومعانيه والسامع وما يحتاجه من آليات.

إن مفهوم البيان الذي عرّفه الجاحظ يحمل نسقا فكريا تداوليا، يقول فيه:" والبيان اسمٌ جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع؛ إنما هو الفهمُ والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[2]؛ فالجاحظ يلخص البلاغة في الفهم والإفهام، لأن البيان مصطلح يحمل زخمًا من الأفكار والأنساق، لأنه يتعلق بدور السامع وأهمية فهمه واطلاعه، ويتم بوسائل عديدة من العلامات اللغوية وغير اللغوية، فتعريف الجاحظ للبيان الذي هو البلاغة يتداخل مع التداولية ومفهومها ومنهجها في الدراسة، ويحتل السامع الحلقة الأهم في كل من البلاغة والتداولية ما يوحي بوجود تداخل هام بين الأنساق المعرفية.

للكلام وتركيبه اعتبارات بلاغية عدّدها علماء العرب، حيث أن تأليف الكلام يكون

(1)- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 75 .

(2) المصدر نفسه، ص 76 .

بناءا على حالة السامع وذهنه، يقول "الخطيب القزويني" (ت739هـ):" - فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم –بأحد طرفي الخبر على الآخر- والتردد فيه استغنى عن مؤكّدات الحكم، كقولك: جاء زيد، وعمرو ذاهب، فيتمكن في ذهنه، لمصادفته إياه خاليا.

- وإن كان متصورا لطرفيه، مترددا في إسناد أحدهما إلى الآخر، طالبا له، حسن تقويته بمؤكّد، كقولك لزيد عارف أو إنّ زيدًا عارف.

- وإن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار فتقول: إني صادق لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره، وإني لصادق لمن يبالغ في إنكاره...

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا، والثاني طلبيا، والثالث إنكاريا، وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجا على مقتضى الظاهر"[1]؛ فالكلام في البلاغة يكون حسب الوضعية التي يكون عليها السامع، وما يشكل ذهنيته ومعرفته، فتتغير الأساليب والتراكيب تبعا للمتلقي وما يختص به، فهذه أنساق معرفية ترتبط بكيفية نسج الكلام وتأليفه تبعا لمقتضى الحال، وهي أنساق تداولية في الوقت نفسه، لأنها تتعلق بالخطاب وكيفيته في علاقته بالاستعمال، وهذا تداخل نسقي يضاف إلى التداخلات السابقة بين البلاغة والتداولية.

وحسب البلاغة فإن الكلام يختلف ويتعدد تبعا لطبيعة السامع الذي يُتوجّه إليه بالكلام، يقول الجاحظ:" أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلّم سيّد الأَمَةِ بكلام الأَمَة، ولا الملوك بكلام السُّوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقّق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كلّ التنقيح، ولا يصفّيها كل التصفية، ولا يهذّبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ...قال: ومن عِلمِ حقِّ المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وتلك الحال له وفقًا"[2]؛ولهذا ينبغي تطبيق الكلام حسب مقتضى

(1)- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، شر وتع: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، القاهرة، 1993، ص: 69. 70. 71 .

(2)- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 92، 93 .

الحال، والخصائص المعرفية والثقافية التي تطبع السامع، أي معرفة ظروف المقام والسياق الذي يشكل التواصل بكل أطرافه، فالجاحظ بهذا يقدم نسقا معرفيا لطبيعة السامع ومدى مناسبة الكلام له، وهذا هو النسق الذي تدخل فيه البلاغة مع التداولية التي تهتم كذلك بمعرفة الوضعية التي يكون عليها وخصائصه العقلية والمقامية، فالبلاغة والتداولية متداخلان في الأنساق حسب هذا التوصيف الذي جاء به الجاحظ.

بعد مناقشة آراء البلاغيين العرب القدامى وطروحاتهم حول مقام السامع وموقفها من التداولية نستنتج مجموعة من النقاط أبرزها:

1- البلاغة العربية القديمة تحمل الكثير من القيم والآراء العلمية الهامة التي تحتاج من يكشفها ويفيد منها.

2- أعطت البلاغة العربية للسامع أهمية بالغة أحاطت به توصيفا وتطبيقا بالبحث في العناصر الكفيلة بإفهامه وتعزيز الخطاب الفاعل على ذهنه وقناعاته.

3- تعتبر التداولية من أقرب العلوم الحديثة للبلاغة، خاصة أن التداولية تدرس علاقة العلامات بالاستعمال والتداول، وهذا ما بحثت فيه كذلك البلاغة العربية التي بحثت كيفية استعمال أنجع للخطاب اللغوي وعوامل تجذيره.

4- توجد العديد من التداخلات والتفاعلات والتشاركات بين البلاغة العربية والتداولية، أي تداخل الأنساق المعرفية المتعلقة بمقام السامع في البلاغة العربية مع الأنساق المعرفية التي تطرحها التداولية، ما يؤسس لشراكة حقيقية بين العلمين وتأسيس حقل عربي خالص ندعوه البلاغة العربية الجديدة.

المصادر والمراجع

1- السكاكي أ. ي. (1987). مفتاح العلوم. لبنان: دار الكتب العلمية.

2- ابن منظورا. (2010). لسان العرب . بيروت: دار صادر.

3- العلوي ا. ط. (2005). عيار الشعر. لبنان: دار الكتب العلمية.

4- بن ظافر الشهري ع. ا. (2004). استراتيجيات الخطاب. لبنان: دار الكتاب الجديد.

5- منغنو، شارودود. ش. (2008). معجم تحليل الخطاب. تونس: دار سيناترا.

6- الجاحظ أ. ع. (1998). البيان والتبيين (Vol. 1). القاهرة: مكتبة الخانجي.
7- العسكري أ. هـ. (1319). كتاب الصناعتين. الأستانة العلية: أحمد ناجي الجمالي، محمد أمين خانجي الكتبي.
8- القزويني ا. (1993). الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار الجيل.
9- صفحة الجابري:
Retrieved October 1, 2017, from https://www.aljabriabed.net/n64_11muyakin.(2).htm